مجلة الحكمة للدراسات التربوية والنفسية
Eissn :2602-5248 Issn : 2353-0456
المجلد 10 / العـدد: 04(2022)، ص: 07- 25

مرتكزات التربية عند العلامة ابن باديس وأبعادها

The foundations of education according to the scholar Ibn Badis and its dimensions

نادية لعروسي1

المدرسة العليا للأساتذة، بوزريعة (الجزائر) laroussi.nadia@ensb.dz

تاريخ الاستلام: 2022/11/22 تاريخ القبول: 2022/11/30 تاريخ النشر: 2022/12/07

ملخص:

تهدف هذه الورقة البحثية إلى تسليط الضوء على طبيعة التربية وأسسها عند العلامة ابن باديس باعتباره رائدا لحركة الإصلاح في الجزائر، والذائد عن الحق حيث ما كان وأينما وجد وعن شرف هذه الأمة وعزتها، فلا تستقيم حياة الأمم ولا يمكن النهوض بالأمة الإسلامية والأمة الجزائرية بصفة خاصة والعمل على تحريرها من نير الاستعمار الفرنسي الغاشم إلا عن طريق التربية المتكاملة التي تتناول كل أبعاد الذات الإنسانية، إن التربية الباديسية تربية عربية إسلامية مستوحاة من الكتاب والسنة، وجوهرها التوحيد باعتباره قيمة حاكمة، تنبني على الحكمة والموعظة الحسنة، فهي تربية روحية أخلاقية تهدف إلى تحقيق الكمال وترسيخ الفضيلة في القول والعمل. وتمكين لدين الله في أرجاء هذا الوطن .

الكلمات المفتاحية: التربية؛ التوحيد؛ النهضة؛ الأبعاد العقلية والإنسانية.

Abstract:

This research paper aims to shed light on the nature of education and its foundations for the scholar Ibn Badis as a pioneer of the reform movement in Algeria, and the defender of the truth wherever it was and wherever it is and the honor and dignity of this nation. To liberate it from the yoke of brutal

French colonialism, except through integrated education that deals with all dimensions of the human self. And the consolidation of virtue in saying and doing. And empowerment of God's religion throughout this country.

Keyword: Education; Monotheism; Renaissance; Mental and human dimensions.

***المؤلف المرسل:** نادية لعروسي

1.مقدمة:

إن التربية هي الحياة، إذ تدور معها وجودا وعدما، فلا تستقيم حياة الإنسان إلا عن طريق التربية المتكاملة التي تتناول كل جوانب شخصية الإنسان، وقد أدرك العلامة ابن باديس الذي يعتبر من أقطاب الفكر الجزائري والمؤسس الفعلي لجمعية العلماء المسلمين بجدارة واستحقاق، ما للتربية من أهمية بالغة للنهوض بهذه الأمة والتحرر من وطأة التخلف، والتصدي لكل صور الاستلاب والهيمنة التي مورست على الشعب الجزائري من طرف الاستدمار الفرنسي الغاشم، فنجاح العملية التربوية عند الإمام عبد الحميد ابن باديس مرتبط ارتباطا وثيقا بالقدوة الحسنة على المستوى الفردي والجماعي، حيث كان يهدف إلى بناء شخصية كاملة متكاملة الأبعاد على هدي القرآن الكريم المعجزة المعنوية الخالدة إلى أبد الدهر وكذلك على نهج السنة الشريفة ورجال الرعيل الأول، فكانت مصادر التشريع الإسلامي نبراسا، ينير له الطريق لإخراج الأمة من غوائل الجهل وظلماته ومنطلقا لتشييد أساسا متينا للإصلاح تربوي.

إشكالية البحث وتساؤلاته:

ما هي طبيعة التربية وأهم مميزاتها عند العلامة ابن باديس؟ وما هي الأسس العقدية والميتافيزيقية التي تنبني عليها؟ وهل أبعاد التربية عند ابن باديس تنحصر في الأبعاد الروحية فحسب أم هناك رغبة ملحة في تحكيم العقل وربط النظر بالعمل عنده والنهوض بالأمة لإخراجها من دائرة التخلف؟ فإلى أي مدى ساهم

ابن باديس في خضم مشروعه التربوي في توعية الشعب الجزائري والعمل على تحريره من نير الاستعمار الفرنسي؟

2.مفهوم التربية عند العلامة ابن باديس:

لا يمكن تحديد مفهوم التربية عنده إلا عن طريق تحليل المفهوم بإبراز أهم خصائصها، فنعرفها حينئذ تعريفا تحليليا، فمن مميزاتها التي تتفرد بها، تتمثل فيما يلي:

1.2خصائص التربية عند ابن باديس:

أ/ أنها تربية دينية روحية بالدرجة الأولى: إن القيمة الدينية في الإسلام تتضمن جميع القيم، لأن الإسلام في جوهره عقيدة وشريعة، بل وحدة كلية غير قابلة للتجزئة، فالإسلام يأخذ جملة وتفصيلا أو يترك جملة وتفصيلا، لذا حرص الشيخ العلامة على تربية الناشئة تربية إسلامية صحيحة، تستمد أصالتها وقوتها من القرآن الكريم كلام الله الكامل المعجز لخاصتهم وعامتهم على حد سواء، حيث أكد على الفهم الصحيح للكتاب والسنة الشريفة باعتبارهما مصدرين رئيسيين للتشريع الإسلامي، لأن هذه المعرفة تعتبر من معاني الأمانة كبرى التي يتحمل تبعتها الإنسان المسلم، يقول في هذا الشأن:" ... أيها الشعب المسلم الجزائري الكريم!تالله لن تكون مسلما إلا إذا حافظت على الإسلام، ولن تحافظ عليه إلا إذا فقهته، ولن تفقهه إلا إذا كان فيك من يفقهك فيه، ولهذا فرض الله على كل شعب إسلامي" (سالم، 1999، ص 97)، فقد آمن إيمانا صادقا، يبتغي من ورائه إرضاء الله ووجهه، لا يشوبه ريب ولا نقص بأن الرجوع إلى السلف الصالح والأصل الأول والتمسك بكتاب الله عز وجل والتفقه في علمه هو الذي سيحصن الأمة من الذوبان وكل محاولة للمسخ وطمس هويتها، لذلك " إن اقتناع ابن باديس بأهمية نشر وتقوية الوازع الديني بضرورة حفظ القرآن والتدبر في معانيه، والعمل به اقتداء بالسلف الصالح، لأن القرآن هو الذي "كون رجال السلف، ولا يكثر عليه أن يكون رجالا في الخلف لو أحسن فهمه وتدبره، وحملت الأنفس على منهاجه" (سالم، 1999، ص 98) .

ولم يكتف بهذا فحسب، بل ناهض وحارب بكل قوة وعزيمة ظاهرة تفشت في المجتمع الجزائري وحتى العربي وهي بناء المساجد على القبور، لأن بيوت

الله تصلح للعبادة وللأحياء وليس للموتى، فيقول مستدلا بأن:" بناء المساجد على القبور من فعل شرار الخلق عند الله يوم القيامة" (باديس، 2007، ص 246).

والتربية الإسلامية في جوهرها تربية روحية، يقول الباحث مصطفى محمد حميداتو في هذا السياق مبينا أهم ميزاتها:" فهي تربية روحية، لأن المخاطب من الإنسان هو نفسه، وأن ما يظهره الجسد من تصرفات لا يعدو أن يكون انعكاسا لما تضمره تلك النفس، التي لا صلاح للإنسان إلا بصلاحها"(حميداتو،2017).

وما يجدر ذكره، أن صفة الحاكمية، تكون دوما لله فاطر السماوات والأرض وحده لا شريك له، "والحكم فوق الجميع هو كتاب الله وسنة رسوله وسلف الأمة الصالحين. إذا رضي إخواننا بهذا الحكم-قولا وتطبيقا-فإننا نرجو رجاء قويا حول الخير العميم للجزائريين، وأن يكونوا هم من أقوى أنصاره المؤيدين" (باديس، 2007، ص76)، إنه ابن بيئته يبتغي ما هو أفضل لبني جلدته.

ب/ **تربية أخلاقية:** لا يمكن الفصل بين البعد الروحي والأخلاقي،لأن الإسلام في حقيقته ليس طقوسا، تعمل على تنظيم على الإنسان بربه فحسب، بل علاقة الإنسان بأخيه الإنسان، حيث كانت الغاية المرجو من القيام بالفرائض زرع الشيم الرفيعة ومكارم الأخلاق، فأضفى الله عز وجل عليها بعدا أخلاقيا لا ينفك عنها وفي تحديد علتها الغائية، لقوله تعالى: (**خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ) [التوبة: 103]**،لذلك أقر وأكد ابن باديس على تطهير الروح وتنزيهها من درائن الرذيلة والخلق السيئ، وحث على التحلي بمكارم الأخلاق والسمو بها نحو الكمال الإنساني والقيمة المثلى، ولا يريد أن يتعارض ظاهر شخصية المسلم مع باطنها، وباعتباره إماما للسلفية التي اتخذت من رجال الرعيل الأول أسوته الحسنة، حيث اعتبر مصدر القيم هو الشرع، أي النص القرآني فالقيم في الإسلام عامة في مصدرها وليست نسبية، لأنها صادرة من أوامر ونواهي إلهية، " إن الخلق القويم لا بد أن يكون نتيجة تطابق الباطن مع الظاهر" واعتبر ابن باديس أن مصدر القيم هذا الخلق القويم هو القرآن الكريم، ولهذا سعى إلى نشر وتعليم القرآن من أجل تحصين المجتمع الجزائري المسلم وإعداده بتربية الناشئة والكبار تربية إسلامية

كاملة" (سالم، 1999، ص 97)، فقد بين لنا مكارم الأخلاق ونفعها ... لكن المسلمين لم يستمسكوا بهذا الأصل وانصرفوا إلى مناهج أخرى، فمنهم من اندفع إلى التصوف الأعجمي واعتبروا إياه عنوانا على السلوك القويم، بينما الحقيقة أنه مختلط بتراث أمم وثنية، أي أن المسلمين انصرفوا عن الأخلاق التي بينها القرآن، والتي لا تدانيها أخلاق أي دين آخر أو أي مذهب فلسفي"،(حلمي، 2013، ص2)، أي ابتعدوا عن النهج القرآني الصحيح وأخلاقه الرفيعة والأصيلة التي تدعو إلى الفضيلة والأخوة والتسامح، واتبعوا قيم دخيلة لا صلة لها بشريعتنا السمحة، ولذلك احتلت التربية الأخلاقية الصدارة عند ابن باديس، واعتبرها كشرط سابق لكل الصور الأخرى، لأن فساد الأخلاق يؤدي إلى انهيار المجتمع وأفول الحضارة، فإذا زالت خلال الخير فارتقب زوال الحكم، "ويعتبر أن الشرع كله متوجه إلى إصلاح النفوس، فصلاح الإنسان وفساده يقاس بصلاح نفسه وفسادها مستشهدا بقوله تعالى (قَد أَفلح من زكَّاها وقد خاب من دَسَّاها)[الشمس: 9-10]" (حميداتو، 2017، ص 3) ، كما أن إصلاح النفس لا يعني الانزواء وعدم التفاعل مع الأخر، بل المسلم القوي هو الذي يتواصل مع الآخر، وكان التعارف القرآني هو جوهر قيام المجتمع وبناء صرح الحضارة.

ج/ تربية عقلية:

تدعو إلى تحرير العقل من عادات وتقاليد بالية عرقلته عن أداء مهمته الأصلية، وقد أعطى الصدارة للعقل باعتباره فصلا نوعيا، يميزنا ويفصلنا عن الأنواع الأخرى داخل الجنس، وحث على تزويده بالعلم الصحيح وتثقيفه بكل علم نافع سواء كان دينيا أو دنيويا، يقول ابن باديس في هذا المضمار: " حافظ على عقلك فهو النور الإلهي مُنحته لتهتدي به على طريق السعادة في حياتك الأخروية والدنيوية،" (حميداتو، 2017، ص 4) كما أنه حث على طلب العلم وجعل الطلبة يؤمنون بأهميته باعتباره طريقا ناجعا للخروج من المشاكل الحياتية التي تواجههم والالتحاق بالركب الحضاري، لكنه زاوج بين العلم والأخلاق، لأن العلم بدون أخلاق مدمر، قد تترتب عنه نتائج وخيمة على الإنسانية برمتها، يقول في هذا المضمار: "العلم الصحيح والخلق المتين هما الأصلان اللذان ينبني عليهما كمال الإنسان" (باديس، 2009، ص 261). إن الهدف الرئيسي الذي يسعى إلى تحقيقه

هو تمكين لدين الله في الأمة الجزائرية، بل في كل أرجاء المعمورة، لأنه من دعاة الإسلام الذين اتخذوا من الجهاد المكي الذي يكون بالبيان والاستدلال سبيلا للتغيير ولحياتهم الفكرية، وتكوين المسلم المتميز الذي يجمع بين القوة والرأفة، ويستعمل القوة في فعل الخير لا في فعل الشر، وأساس المفاضلة بين البشر هو العمل الصالح والتقوى فلا مجال لعصبية ولعرقية الضيقة، ولا للتفاخر بالأنساب، يقول مصطفى محمد حميداتو في هذا المضمار بأن ابن باديس رحمه الله :" بين الهدف التربوي الذي يسعى لتحقيقه بأنه" الرجوع (بالشعب) إلى عقائد الإسلام المبنية على العلم، وفضائله المبنية على القوة والرحمة، وأحكامه المبنية على العدل والإحسان، ونظمه المبنية على التعاون بين الأفراد والجماعات... وأن لا فضل على أحد إلا بتقوى الله، ومن اتقى الله فهو أنفع الخلق لعباد الله" (حميداتو، 1997، ص184).

د/ تربية جسمية: اهتم ابن باديس بكل جوانب شخصية الإنسان ولم يهمل الجانب الجسمي، الذي له دوره في تحقيق التوازن النفسي، "فمن التوجيهات الباديسية في تربية الجانب الجسمي مثلا قوله رحمه الله:"-حافظ على صحتك فهي أساس سعادتك وشرط قيامك بالأعمال النافعة لنفسك ولغيرك.

-تجنب العفونة فإنها مصدر الجراثيم الأمراض ومثار نفور وبغض لطلعتك، وتجلبه إلى الاستئناس بمعاشرتك.

-نظف بدنك، نظف ثوبك تبعث الخفة والنشاط في نفسك وتنبل في عين غيرك وتجلبه إلى استئناس بمعاشرتك" (عواريب، 2010، ص 230)، إن نظافة البدن من صفات المسلم التقي، الذي يبتغي الطهارة الحسية والمعنوية، فهي تلعب دورا في نظرة الأنا لنفسه ونظرة الآخرين للانا، أي الشخصية في مرآة الذات والآخر.

ه/تربية عملية:

تزاوج بين النظر والعمل، وتسعى إلى تحويل النظر إلى أجرأة، أي سلوك، فقد أدرك جوهر الإيمان الحق بأنه ليس مجرد اعتقاد بالقلب وشهادة لسان، بل يدخل العمل باعتباره عنصرا أساسيا كامنا في طبيعته، فلا يمكن أن ينفك عنه، فيقول في هذا الشأن:" الدين كله عقد بالقلب ونطق باللسان، وعمل الجوارح

الظاهرة والباطنة، وكل واحد من الثلاثة يسمى إيمانا باعتبار، ويسمى إسلاما باعتبار آخر،" (باديس، 2006، ص 14) لكنه من جهة ثانية يجعل من العامل النظري المتصل بالعلم منطلقا أساسيا للعمل أو شرطا سابقا له، أي" يعطي ابن باديس أهمية بالغة للجانب العلمي التعليمي، ويرى بأن أي عمل لا يقوم على العلم فهو غير مأمون النتائج، بل قد يشكل خطرا على صاحبه وعلى من يحيط به يقول رحمه الله: العلم قبل العمل ومن دخل العمل بغير علم لا بمأمن على نفسه من الضلال ولا عبادته من مداخل الفساد والاختلال وربما اغتربه الجهال فسألوه فاغتر هو بنفسه فتكلم بما لا يعلم فضل وأضل". (عواريب، 2010، ص 231).

وفي حياته اليومية لا يؤمن ابن باديس بمجرد القول دون الفعل، بل يرى أن الفعل ملازم للقول حتى يسمو الإنسان المسلم إلى السؤدد والكمال الأخلاقي، لأن الإنسان لا بد أن يكون أسوة حسنة يقتدى به.

و/تربية متكاملة:

تحقق تكامل شخصية الإنسان الذي يشكل دليلا على استقرارها وتوازنها، لأن التربية الإسلامية الصحيحة تتناول الإنسان بجميع أبعاده، وليست تربية ذرية، تنصب على الجزء فقط، وكذلك تقيم توازنا بين مطالب الروح والجسد، بحيث لا يطغى أحدهما على الآخر.

3. أسس التربية الباديسية:

1.3الأسس العقدية والميتافيزيقية للتربية عند ابن باديس:

إن الإسلام ديانة ناسخة لجميع الديانات على مستوى التشريع، وتفردت ملتنا الغراء عن سائر الممل الأخرى بعالميتها، حيث جاء الرسول صلى الله عليه وسلم بشيرا ونذيرا للبشرية قاطبة، والإسلام دين توحيد باعتبارها قيمة حاكمة، تصدر عنها قيم محكومة، لأنها الفيصل بين الإيمان والكفر.

تعريف التوحيد:

أ/التوحيد فطرة الله التي فطر الناس عليها؟ قال: التوحيد.

-ما تلك الفطرة؟ قال: هي الإسلام، فطرهم الله حين أخذ ميثاقهم على التوحيد" (العجم، 1998، ص 505)، فكان التوحيد بهذا المعنى صفة متأصلة في النفس البشرية، أي جبلة ملازمة للإسلام.

ب/ وورد في المعجم الفلسفي بمعنى " إفراد الله بالعبودية، ونفيها عن كل ما سواه، والتوحيد جوهر الإسلام، بل كل الديانات.

اصطلاحا: هو معرفة الله تعالى بالربوبية، والإقرار بالوحدانية، ونفي الأنداد عنه. وهو الإيمان بالله واحد للكون بكل ما فيه ومتصرف به وحده لا يشاركه في ملكوته شيء وهو الله سبحانه وتعالى لا شريك له لم يتخذ صاحبة ولا ولد ولم يكن له ولي من الذل وكبره تكبيرا سبحانه وتعالى عما يقول الظالمين علوًا كبيرا" (حسيبة، 2009، ص 149)، فالله عز وجل متفرد بالربوبية لانفراده بالخلق ومنفرد بالألوهية، أي استحقاقه وحده للعبادة، فلا معبود سواه، لا إله إلا هو، متصرف في كونه كما ما يشاء، لأنه المالك الحقيقي سبحانه.

ج/ وورد في معجم ألفاظ العقيدة بأن:" التوحيد لغة مصدر وحَّد، أي جعل الشيء واحداً وهذا لا يتحقق إلا بنفي وإثبات، نفي الحكم عما سواه الموحد وإثباته له فمثلا نقول: إنه لا يتم للإنسان التوحيد حتى يشهد أن لا إله إلا الله فينفي الألوهية عما سوى الله ويثبتها لله وحده.

وفي الاصطلاح: هو إفراد الله بالعبادة، أي تعبد الله وحده لا تشرك به شيئا لا تشرك به نبيا مرسلا ولا ملكًا ولا أحدا من الخلق بل تفرده وحده بالعبادة محبة وتعظيما ورغبة ورهبة.

وهناك تعريف أعم للتوحيد وهو:" إفراد الله سبحانه بما يختص به" (الله، 2013، ص 108).

يرى ابن باديس: أن التوحيد جوهر الدين، يدور معه وجودا وعدما، لأن وجود الإله الواحد خالق ملكوت السماوات والأرض، ينتج عنه الانسجام والتناسق في هذا الكون الشاسع المترامي الأطراف الذي يعتبر أثرا من اثر قدرته سبحانه، أما التعدد، يتولد عنه الاختلاف والتناقض، لذلك كان المنطق الفطري شرطا سابقا للمنطق الاصطناعي،أي المنطق كعلم، يقول الله عز وجل: "(لاَّ تَجعل

مع الله إلهًا ءاخَرَ فَتقعُدَ مَذمُومًا مَّخذوُلا)[الإسراء:22]، هذا هو أساس الدين كله، وهو الأصل الذي لا تكون النجاة ولا تتقبل الأعمال إلا به. وما أرسل الرسول إلا داعيًا إليه ومذكرًا بحججه، وقد كانت أفضل كلمة قالها الأنبياء-عليهم الصلاة والسلام- وهي كلمة: "لا إله إلا الله" وهي كلمته الصريحة فيه. ولا تكاد سورة من سور القرآن تخلو من ذكره والأمر به والنهي عن ضده" (باديس،2009، ص 183)، ولم يكتف ابن باديس ببان طبيعة التوحيد، بل قام بتفسير عباراته، لأن لا سبيل إلى معرفة كنه النص إلا من خلال الربط المحكم بين اللفظ ومعناه، الذي يستلزم المطابقة، لمعرفة المعنى الإلهي الثابت، فيقول" وأنت ترى أن هذه الآيات الجامعة قد جعلت بين آيتين صريحتين فيه. (لا تجعل): الجعل يكون عمليًّا، كجعلت الماء مع اللبن في إناء واحد. ويكون اعتقاديا، كجعلت مع صديقي صديقًا آخر. والجعل في الآية من هذا الثاني.

(مع الله): المعية هنا أيضا هي معية اعتقادية.

(إلها ءاخر): الإله هو المعبود، والعبادة نهاية الذل والخضوع، مع الشعور بالضعف والافتقار، وإظهار الانقياد الامتثال، ودوام التضرع والسؤال... فنهى الله الخلق كلهم عن أن يعتقدوا معه شريكًا في ألوهيته فيعبدوه، ليعتقدوا أنه الإله وحده فيعبدوه وحده. وبين لهم أنهم إن اعتقدوا معه شريكا وعبدوه معه، فإن عبادتهم تكون باطلة، وعملهم يكون مردودًا عليهم" (باديس،2009،ص 184)، فنحن الفقراء والله هو الغني الوحيد، والغاية الوجودية للعبد، تنحصر في عبادة الله الواحد الأحد الصمد، والانقياد لأوامره وطاعته اعتقادا وعملا.

وهذه الآية"(لاَّ تَجعل مع الله إلهًا ءاخَرَ فَتقعُدَ مَذمُومًا مَّخذوُلا)[الإسراء:22]،تفيد العموم، حيث يعرف العام بأنه: ما استغرق جميع ماصدقه، ولا تفيد هذه الآية الخصوص، فالخطاب موجه لكل المسلمين في شتى الأمصار والعصور، أي " أن الخطاب وإن كان موجه للنبي -صلى الله عليه وسلم- فإنه عام للمكلفين، وسر مثل هذا الخطاب تنبيه الخلق إلى أن شرائع الله وتكاليفه عامة للرسول والمرسل إليهم" (باديس، 2009، ص 185).

فكان التوحيد عند ابن باديس جوهر التربية الإسلامية الصحيحة، التي تسترشد بتعاليم ديننا الحنيف، وتنبني على أركان الإيمان الحق، الذي هو في

أساسه عقد بالقلب وشهادة لسان وعمل الجوارح، فكان العمل عنصرا جوهريا كامنا في طبيعته، فالسلف لا يفصلون بين الإيمان والعمل، كما فعلت فرقة المرجئة التي ترى أن الإيمان لا يزيد وينقص بالأعمال الصالحة، وبالتالي يستوي إيمان العاصي مع إيمان المسلم التقي عندهم وهذا شطط وغلو ظاهر، لا صلة له بالمنطق السليم، يقول ابن باديس:" "فالعبادة بجميع أنواعها لا تكون إلاّ له. فذل القلب وخضوعه والشعور بالضعف والافتقار والطاعة والانقياد والتضرع والسؤال، هذه كلها لا تكون إلا لله" (باديس، 2009، ص185).

إن التوحيد عند ابن باديس، نوعان: توحيد علمي وتوحيد عملي، يقول في هذا الشأن:" وكما انتظمت هذه الجملة توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية مع الآية السابقة (وَقَضَى رَبُّك ألاّ تَعبُدُوا إلّا إيَّاه) التوحيد العلمي والتوحيد العملي.

فالأولى: نهي عن أن نعتقد الألوهية لسواه، وهو يتضمن النهي عن اعتقاد ربوبية سواه، وهذا باب العلم.

والثانية: أمر بأن تكون عبادتك مقصورة عليه، لأنه هو ربك وحده، وهذا من باب العمل" (باديس، 2009، الصفحات 186-187)، ويحمل ابن باديس تبعة الإيمان بالتوحيد أو الإخلال بشروطه، وهي في الحقيقة مسؤولية نسبية، وما يترتب عنهما من نتائج إيجابية أو سلبية، فيقول:" فمن وحد الله جلّ جلاله في ربوبيته وألوهيته، علما وعملا، فقد استكمل حظه من مقام هذا الأساس العظيم، ومن أخل بشيء من ذلك كان ذلك نقصا في دينه بقدر ما أخل، حتى ينتهي الأمر إلى خلًّص المشركين. نعوذ بالله من الشرك، جليّه وخفيّه، إنه السميع العليم" (باديس، 2009، ص187).

إن التوحيد عند الفقهاء له صورتان: توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية، فالأول يعني تفرد الله بالرزق والتدبير والملك...الخ، التي اختص بها الله عز وجل دون سواه وتعتبر من صفات الأفعال، أما الثاني: فهو تفرده في استحقاق العبادة التي تقام له سبحانه فقط.

وقد جاء في معجم ألفاظ العقيدة لفالح عامر عبد الله، أن للتوحيد ثلاثة أنواع:

الأول: توحيد الربوبية، وهو إفراد الله سبحانه بالخلق والملك والتدبير، قال تعالى: (الله خالق كل شيء) وقال تعالى (ألا له الخلق والأمر).

الثاني: توحيد الألوهية: وهو إفراد الله سبحانه وتعالى بالعبادة بأن لا يتخذ الإنسان مع الله أحدا يعبده ويتقرب إليه كما يعبد الله ويتقرب إليه.

الثالث: توحيد الأسماء والصفات: وهو إفراد الله سبحانه بما سمى به نفسه في كتابه أو على لسان رسوله، وذلك بإثبات ما أثبته ونفي ما نفى " من غير تحريف ولا تعطيل، ومن غير تكييف ولا تمثيل" (الله، 2013، الصفحات 108-109). والتوحيد عند الفقهاء وأئمة السلف، يختلف مفهومه عن مدلول التوحيد في علم الكلام المعتزلي الذي يعني عينية الذات والصفات، لأن الله عندهم ليس محلا للحوادث، ودليلهم في ذلك، الأجسام لا تنفك عن الأعراض والأعراض ملازمة للأجسام،

ولقد انتقد ابن باديس مناهج علماء الكلام وناصر وذب عن أدلة الأحكام والآليات الاستدلالية القرآنية، لأنه يوجب تعليم العقائد الإيمانية للناس عن طريق الأدلة القرآنية لا البراهين المنطقية، فالأولى سهلة غير مستغلقة تنسجم مع الفطرة الإنسانية، ومن واجب المسلمين في نظره الرجوع إليها في عملية الاستدلال على العقائد بدلا من طرق المتكلمين وآلياتهم الاستدلالية، المعقدة، التي هي في أساسها أقيسة منطقية عقلية، تبتعد كل البعد عن روح الإسلام، يقول ابن باديس في هذا الشأن:" أدلة العقائد مبسوطة في القرآن بغاية البيان، ونهاية اليسر، وأدلة الأحكام أصولها مذكورة كلها فيه، وبيانها وتفاصيلها في السنة النبي –صلى الله عليه وسلم...فحق على أهل العلم أن يقوموا بتعليم العامة لعقائدهم الدينية، وأدلة تلك العقائد في القرآن العظيم، إذ يجب على كل مكلف أن يكون في كل عقيدة من عقائده الدينية على علم...أما الإعراض عن أدلة القرآن، والذهاب إلى أدلة المتكلمين الصعبة ذات العبارات الاصطلاحية، فإنه من الهجر لكتاب الله، وتصعيب طريق العلم إلى عباده، وهم في أشد الحاجة إليه" (باديس، 2009، ص 136).

إن المنهج الذي يقترحه ابن باديس نابع من قناعته بأن هذا الموضوع الحساس لابد أن يدرس من خلال القرآن بعيدا عن المؤثرات الأجنبية الخارجية،

وتفشي مظاهر الشرك في المجتمعات الإسلامية وانحطاطها مرده إلى الانصراف عن المنهج القرآني والابتعاد عن نهجه القويم والأخذ بالآليات المنطقية المعقدة التي لا يستسيغها حتى العلماء أو الخاصة.

2.3.الأسس الاجتماعية الثقافية:

إن التربية الباديسية هي جزء لا يتجزأ من فلسفة المجتمع وقيمه التي يؤمن به، فالإنسان ابن بيئته ومنتوج اجتماعي وسلوكه لا ينفك عن قواعد السلوك التي تعارفت عليها الجماعة، فالتربية عند ابن باديس وسيلة ناجعة لتحقيق اليقظة والتغيير الاجتماعيين من أجل نهضة الأمة الجزائرية، بل نهضة الأمة الإسلامية، لأن التربية عنده لها أبعاد إنسانية دينية، فكان التغيير والإبداع صفتين متلازمتين في التربية عند العلامة ابن باديس، أما التقليد والنمطية والاجترار، يترتب عنها العطب والعطل التاريخي، "لقد اتخذت الحركة الإصلاحية من التربية مدخلا لتحقيق التغيير الاجتماعي، كما اتخذت من الإسلام مرجعية حضارية لهذا التغيير، ومن ثم فقد كانت تلك الحركة-كما يقول مالك بن نبي-" التي قام بها العلماء الجزائريون أقرب الحركات إلى النفوس، وأدخلها في القلوب، إذ كان أساس منهاجهم الأكمل قوله تعالى (إنَّ اللهَ لا يُغير ما بقوم حَتَّى يُغيرُا ما بأنفسهم)[الرعد: 11] (رداد، 2020، ص679).

ولا يتم التغيير إلا بالرجوع إلا رجال الرعيل الأول فهم قدوتنا الحسنة، فلا نهضة للمجتمع الجزائري إلا بالعودة إلى ذلك النبع الصافي والنهج الصحيح الذي سار عليه السلف الصالح، ولا مجال للتحديث بمناهج غربية دخيلة كما فعل أنصار الحداثة العربية، بل بمنهاجنا القرآني الأصيل الذي كان ولا يزال مصدرا لقوة الأمة الإسلامية التي ستعود من جديد بالرغم من كيد الكائدين، فصلاح الرعيل الأول كان بالتوحيد والإيمان بالله ورسوله قولا وعملا وكذلك آخرها لا يصلح إلا وفق هذا المنوال، فقد قال الإمام مالك : "لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها"، فكان الدين هو قوام النهضة وأساس المدنية عند العلامة ابن باديس، يقول البشير الإبراهيمي في هذا المضمار مفسرا لهذا القول:" فالذي صلح به أول هذه الأمة حتى أصبح سلفاً صالحاً هو هذا القرآن الذي وصفه منزِّلُه بأنه

إمام، وأنه موعظة، وأنه نور، وأنه بينات، وأنه برهان، وأنه بيان، وأنه هدى، وأنه فرقان، وأنه رحمة، وأنه شفاء لما في الصدور، وأنه يهدي للتي هي أقوم... ووصفه من أنزل على قلبه، محمد بن عبد الله صلى الله عليه وآله وسلم بأنه لا يخلق جديده، ولا يبلى على الترداد، ولا تنقضي عجائبه، وبأن فيه نبأ من قبلنا، وحكم ما بعدنا، ثم هو بعد حجة لنا أو علينا" (الابراهيمي، 1952)، وبالتالي إن الخضوع للقانون الإلهي هو الحرية في حد ذاتها، لأنه حرر العقل من عقال العرف الجائر وعادات بالية لا تمت صلة بالمنطق السليم والفطرة الصافية، لأن القرآن عمل على أنسنة الإنسان وبلغ به إلى تلك المرتبة المرموقة بفضل التربية الربانية، و"القرآن هو الذي أصلح النفوس التي انحرفت عن صراط الفطرة، وحرر العقول من ربقة التقاليد السخيفة، وفتح أمامها ميادين التأمل والتعقل، ثم زكى النفوس بالعلم والأعمال الصالحة، وزينها بالفضائل والآداب. والقرآن هو الذي أصلح بالتوحيد ما أفسدته الوثنية، وداوى بالوحدة ما جرحته الفرقة واجترحته العصبية، وسوى بين الناس في العدل والإحسان، فلا فضل لعربي - إلا بالتقوى - على عجمي، ولا لملك على سوقة إلا في المعروف، ولا لطبقة من الناس فضل مقرر على طبقة أخرى" (الابراهيمي،1952)، إن فلسفة التربية عند ابن باديس مصدرها كتاب الله وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام، فكان التعليم وهو وسيلة من وسائل التربية أداة للإصلاح، ويقر أن العلماء باعتبارهم ورثة الأنبياء وهم أسوتنا الحسنة ، أن صلاحهم يعد شرطا ضروريا لتحقيق النهضة بالأمة وكل تغير حضاري فيقول:" لن يصلح المسلمون حتى يصلح علماؤهم، ولن يصلح علماؤهم إلا إذا صلح تعليمهم، ولن يصلح هذا التعليم إلا إذا رجعنا للتعليم النبوي في شكله وموضوعه في مادته وصورته" (بوعزة، 2015، ص 507)، فكان شعاره (الإسلام ديننا-والعربية لغتنا-والجزائر وطننا) هي مرتكزات التربية الباديسية الأصيلة التي تشبعت بالتربية الإسلامية وهي عبارة عن مقومات ذاتية روحية، وأسس للهوية الجزائرية التي عمل الاستعمار الفرنسي على طمس تعاليمها، والتي تندرج ضمن مشروعه النهضوي الحضاري.

3.3.الأبعاد العقلية الفلسفية:

يعتبر العقل خصيصة إنسانية، يتميز بها الإنسان عن سائر الحيوانات العجماء، وهو أداة ناجعة لتحصيل العلم الصحيح، ومناط للتكليف وهو المنطق الفطري الذي يستطيع الإنسان عن طريقه ممارسة العمليات العقلية، وتنظيم أفكاره، لأن الإنسان هو الكائن الوحيد الذي يستطيع تحويل الصورة الحسية إلى تصور أو معنى، ويربط بين معنيين ليكون حكما أو قضية، فينتقل من التصور إلى إدراك النسبة، يقول ابن باديس:" يمتاز الإنسان عن سائر الحيوان بالعقل، وعقله هو القوة الروحية التي يكون بها التفكير، وتفكيره هو نظره في معلوماته التي أدرك حقائقها وأدرك نسبها بعضها لبعض إيجابا وسلبا، وارتباط بعضها ببعض نفيًا وثبوتًا، وترتيب تلك المعلومات بمقتضى ذلك الارتباط على صورة مخصوصة ليتوصل بها إلى إدراك المجهول" (باديس، 2009، ص 263)، ويبين الفرق الجوهري بين الإنسان والحيوان، لأن هذا الأخير، سلوكه غريزي ثابت، يسير على وثيرة واحدة، ويتميز بعدم التبصر بالغايات عكس الإنسان الذي يتميز سلوكه بالقصدية ويفصح عن قوة مبدعة، تتجلى في اكتشافاته لسبر أغوار الطبيعة وأنسنتها، لذلك كان للإنسان تاريخ، بل هو تاريخ، لأن حياته لا تعرف الاستقرار، بل أساسها التغير المستمر والصيرورة الدائمة، "ولما امتاز الإنسان عن سائر الحيوان بالعقل والتفكير-امتاز عنه بالتنقل والتحول في أطوار حياته ونظم معيشته بمكتشفاته ومستنبطاته، فمن المشي على الأقدام إلى الجو مثلا" (باديس، 2009، ص264)، فانتقل الإنسان من المرحلة الطبيعية إلى مرحلة الثقافة التي تعمل على صناعة الإنسان وفق القواعد التي تعارفت عليها الجماعة وبفضلها كف الإنسان أن يكون حيوانا، ويحث ابن باديس على طلب العلم ومحاربة الجهل وكل سياسة تعمل على تجهيل هذه الأمة، فيحدد العلم بأنه:" إدراك جازم مطابق للواقع عن بينة سواء كانت تلك البينة حسا ومشاهدة أو برهانا عقليًا، كدلالة الأثر على المؤثر والصنعة على الصانع، فإذا لم تبلغ البينة بالإدراك رتبة الجزم فهو ظن، هذا هو الأصل" (باديس، 2009، ص 262)، فكان الإدراك الجازم هو العلم اليقيني الذي يستند إلى أدلة العقل وشهادة الحس والذي يستلزم المطابقة مع الواقع.

ويرى العلامة ابن باديس أن الحياة لا يمكن أن تنفك عن العلم فهما متلازمان ومتساندان، والعلاقة بين التعلم والعلم علاقة لزوم، إذ لا يحصل الأول إلا بوجود الثاني، "لا حياة إلا بالعلم، وإنما العلم بالتعلم، فلن يكون عالما إلا من كان متعلماً، كما لن يصلح معلما إلا من قد كان متعلما. ومحمد-صلى الله عليه وآله وسلم-الذي بعثه الله معلما كان أيضا متعلما: علمه الله بلسان جبريل، فكان متعلما عن جبريل عن رب العالمين، ثم كان معلما للناس أجمعين" (باديس، 2007، ص 343)، وهذا يعني أن مصدر العلم الإنساني هو العلم الإلهي فهو الذي علم آدم عليه السلام والأنبياء وكل المرسلين إلى خاتم الأنبياء عليه الصلاة والسلام، ولم يكتف بهذا فحسب، بل حث كذلك على الاستزادة في العلم، لأنه أدرك الحقيقة ولم يجانب الصواب، فكل نهضة لأمة ما لابد أن تنبني على الرفع من مكانة العلم والحث على طلبه للارتقاء إلى السؤدد، إذ لا يتحقق الرقي الحضاري إلا بفضله.

وقد أدرك ببصيرة ثاقبة أن الإنسان يصبو دوما إلى قيمة المثلى وإلى الكمال فمهما بلغ من علم، يبقى دوما بعوز إليه، حيث" يتعلم الإنسان حتى يصير عالماً ويصير معلماً، ولكنه مهما حاز من علم وبلغ من درجة فيه... فلن يزال بحاجة إلى العلم، ولن تزال أمامه فيما علمه أشياء مجهولة يحتاج إليها. فعليه أبدا أن يتعلم، وأن يطلب المزيد، ولذا أمر الله نبيه-صلى الله عليه وآله وسلم-وهو المعلم الأعظم- أن يطلب من الله-وهو الذي علمه ما لم يكن يعلم- أن يزيده علماً فقال: (وَقل ربّ زدني علما) [طه: 114] (باديس، 2007، الصفحات 344-345).

إن ابن باديس يولي أهمية كبيرة للعقل الذي لا تنحصر وظيفته في اكتساب العلم، بل في الفحص الانتقادي الذي يشارك في الإنسان بكل كيانه، فتحول العقل من اعتباره وعاء لحشو المعلومات إلى فاعلية وطاقة لتوليد المعاني ولإنتاج أفكار جديدة، تعمل على تجاوز الأفكار البالية والدخيلة التي ليس لها صلة بأصالة المجتمع الجزائري المسلم، حيث "قامت فلسفة التربية عند ابن باديس على أساس الاستثمار في العقل البشري، لأن صلاح المجتمع مرتبط بصلاح الفرد والعكس صحيح، لذلك يؤكد على هدم كل الأفكار الغريبة الدخيلة على المجتمع

الجزائري والمخالفة لعاداته-فإصلاح ابن باديس التربوي إصلاح ذاتي داخلي يمس جميع أبعاد الإنسان السياسية والدينية والاجتماعية" (وحيد، 2021) .

لقد تسلح بالمنهج النقدي ليدحض كل الأفكار الدخيلة التي ترجع في حقيقتها إلى مؤثرات خارجية بعيدة كل البعد عن قيم المجتمع الجزائري المسلم، فكان بمثابة فيلسوف يقيم كل شيء على دعائم نقدية متينة، حيث حارب الفهم غير الصحيح للإسلام والتصوف السلبي الذي يدعو في أساسه إلى الاستكانة والخنوع والخضوع للمستعمر الفرنسي وخدمة مآربه الدنيئة، والوقوع في براثين الشرك، لأنه قائم على طقوس وتعاليم كالتمسح بالأضرحة وزيارة الأولياء والسحر والدجل، لا تمت صلة بملتنا الغراء التي تنبني على الفطرة السليمة وقيمة التوحيد، وقد وقعت بين العلامة ابن باديس والطرقية صدام حاد، لأنه اكتشف كنهها، فهي امتداد للاستعمار، بل هما وجهان لعملة واحدة، لأن الاستعمار نوعان: استعمار فرنسي استيطاني عمل على نهب خيرات البلاد والتنكيل بهذا الشعب، واستعمار فكري ثقافي، يعمل على تشويه صورة الإسلام النقية، وترتب عنه تجهيل هذه الأمة وتخلفها عن الركب الحضاري،يقول العلامة ابن باديس في هذا الشأن:" لا يكون إصلاح إلا بالانتقاد، فلذلك وجدنا أنفسنا مضطرين إليه وقد كانت منا انتقادات سياسية واجتماعية وأدبية ودينية هي الاعتقادات، ولقد كان همنا الأول تطهير عقيدة التوحيد من أضرار الشرك القولي والفعلي والاعتقادي فإن التوحيد هو أساس السلوك ولذلك ابتدئ بـ "إيَّاكَ نَعبدُ" قبل "اهدنَا" في فاتحة القرآن العظيم. هنا اصطدمنا بزعماء الطرق وشيوخ الزوايا الاصطدام المعروف، لأنه إذا خلص التوحيد وتوجه الناس إلى ربهم الذي خلقهم وتركوهم واعتقدوا فيهم أنهم مخلوقين مثلهم لا يضرون ولا ينفعون إلى غير ذلك مما ينتجه التوحيد الصحيح من تحرير العقول والأرواح والقلوب والأبدان" (باديس، 2007، ص 57).

4.3.الأبعاد الإنسانية:

إن ابن باديس يناصر الحق باعتباره قيمة نظرية حيث ما كان وأينما وجد، لأنه اتخذ من الإسلام باعتباره دينا عالميا نبراسا لحياته الفكرية، ينشد القيم الإنسانية العالمية الرفيعة، ويخاطب الإنسان بأبعاده المختلفة متحررا من كل

تزمت وعصبية وانتماء عرقي، فدعوته لله كانت تكتسي حلة عالمية، تتجاوز حدود الزمان والمكان وعقال العرق الضيق ليرتمي في أحضان الإنسانية قاطبة، يقول في هذا المضمار:" إن "الشهاب" سيسير على خطته ثابتا على مبادئه، مراعيا مقتضيات الحال والزمان والمكان بسياسة حكيمة، وتهذيب راق، وانتقاد نزيه، يوالي الحق والإنسانية، وينصر أنصارهما من كل جنس ودين، يمجد الحرية والعدل والأخوة من كل إنسان، ويمقت الاستبداد والظلم والشقاق من كل إنسان، وله من ثقته بالله ثم بنفسه، وأنصاره خير معين وأقوى نصير" (باديس، 2007، ص76) .

4.خاتمة:

ونستخلص مما سبق، أن التربية الباديسية تربية أصيلة،استمدت أصولها من نبع صاف لا تشوبه الشوائب الإنسانية من القرآن والسنة الشريفة وأعمال السلف الصالح، فكان "الحكم فوق الجميع هو كتاب الله وسنة نبيه وعمل سلف الأمة الصالحين" ومن نتائج البحث ما يلي:

-التربية عند ابن باديس في أساسها روحية، لأن الإسلام هو عمودها الفقري الذي لا ينفك عن طبيعتها وكذلك لا يمكن أن نفصلها عن الأخلاق، لأن جوهر الإسلام هو تطهير النفوس من الرذائل والتحرر من وطأة الغرائز ببيان دور العفة في السلوك، فكان الرسول –صلى الله عليه- وسلم أسوتنا الحسنة،حيث كان قرآنا يمشي على الأرض كما قالت عائشة رضي الله عنها.

-انبنت التربية الباديسية على قيمة التوحيد الذي يعتبر أساس كل سلوك إنساني، يسترشد بالحق ويذب عنه باعتباره جوهر الإسلام، لأن التوحيد هو جنسية كل مسلم ومؤمن بالله الواحد الأحد.

- إن فلسفة ابن باديس فلسفة قرآنية، لأنها تستمد أصولها من نبع صاف أو أصل رباني كامل هو القرآن المعجزة المعنوية لسيد الأنام -عليه الصلاة والسلام - التي ستبقى صامدة إلى أبد الدهر، وإن كره الكارهون وأعداء الإسلام في مختلف الأزمان والأمصار.

5.التوصيات:

من بين التوصيات التي أصبو إلى تحقيقها هي:

-الإكثار من هذه الملتقيات التي تربطنا بأصالتنا ومقوماتنا الروحية.

-كذلك نحتاج إلى ملتقيات تلم بمواضيع جديدة في مجال التربية في الفكر الجزائري، وبالرجوع إلى التراث سنكتشف شخصيات جديدة رائدة غير معروفة، حيث تعتبر الحضارة الإسلامية من أغنى الحضارات لما تحتويه من مخطوطات تزخر بالأمجاد، فلا حياة للأمة الإسلامية إلا بتاريخها فأمة بدون تاريخ في عداد الموتى.

6.قائمة المصادر والمراجع:

الكتب:

المصادر

بن باديس، عبد الحميد. (2007). *الآثار*، ج5، (د-ط)، الجزائر، وزارة الثقافة.

بن باديس، عبد الحميد. (2006). *العقائد الإسلامية*، موقع الإمام ابن باديس، www.binbdis.net

ابن باديس، عبد الحميد. (2009). *تفسير ابن باديس أو مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير*، م1، ط1، الجزائر، دار الرشيد.

المراجع

العجم، رفيق. (1998). *موسوعة مصطلحات أصول الفقه عند المسلمين*، ج1، مادة: أ-ع، ط1، لبنان، مكتبة لبنان ناشرون.

عبد الله، فالح عامر. (2013). *معجم ألفاظ العقيدة*، ط2، رياض، السعودية، العبيكان.

سالم محمد، بهي الدين. (1999). *ابن باديس فارس الإصلاح والتنوير*، ط1، القاهرة، مصر، دار الشروق.

حميداتو، مصطفى محمد. (1997). *كتاب الأمة-عبد الحميد بن باديس وجهوده التربوية، ط1، قطر*، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية.

حسيبة، مصطفى. (2009). *المعجم الفلسفي*، ط1، الأردن، دار أسامة.

مقال:

بوعزة، الصالح. (2015). *بعد الهوية والمواطنة في المقاربة التربوية الباديسية*، مجلة تنمية الموارد البشرية، العدد11، ديسمبر 2015.

علاق، لامية رداد، وعبد الرحمن. (2020). *المقاربة الاجتماعية للتربية عند ابن باديس*، مجلة الإحياء، المجلد (العدد)20- 25.

بن العربي عواريب، لخضر. (2010). *نظرات تربوية في المنهج الإصلاحي التربوي عند ابن باديس*، مجلة العلوم الإنسانية، العدد 1.

مواقع الانترنيت:

بلخضر وحيد. (2021). الأبعاد *الفلسفية للنظام التربوي عند عبد الحميد ابن باديس* www.lagora-univ-oran2.org

محمد البشير الإبراهيمي. (1952). *روائع المقالات القديمة*، الدُّرر السَّنية، www.dorar.net

مصطفى حلمي.(2013). *آراء الإمام عبد الحميد بن باديس في الأخلاق*، www.alukah.net

مصطفى محمد حميداتو.(2017). *خصائص التربية عند ابن باديس*، *httpbinbadis.net*